روسيا

تاريخ الشعب من القبيلة إلى الدولة

تأليف:

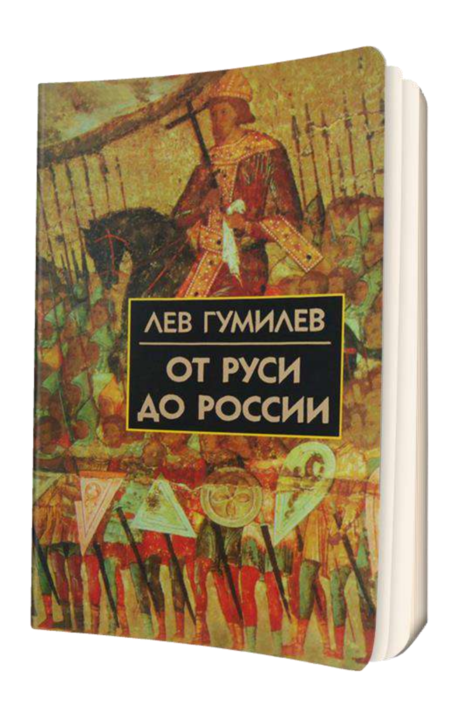
ليف غوميليوف

ترجمة:

عاطف معتمد سعد سيد خلف وائل فهيم

مراجعة وتقديم:

عاطف معتمد



مقدمة الترجمة

بقلم: عاطف معتمد

في الصفحات التالية مقدمة الترجمة للكتاب المؤلف من ٤٠٠ صفحة وهو قيد الطبع حاليا في المركز القومي للترجمة بالقاهرة. وتجدون في هذا الملف أيضا ملحقا بالخرائط التوضيحية التي أعددناها لتقريب النص للقارئ العربي.

العنوان الأصلي لهذا الكتاب هو "من روس إلى روسيا" وقد عدلناه إلى " تاريخ روسيا" ثم ذيلناه بعنوان فرعي هو "من القبيلة إلى الأمة". وأود هنا أن أمهد للقارئ الكريم بعدد من النقاط تقرب إليه هدف ومنهج هذا الكتاب. ودعوني أضع ذلك في ست نقاط رئيسة.

أولاً: القبيلة

على الرغم من مكانتها كقوة عظمى في فترات طويلة أو قوة إقليمية كبيرة تشارك في صنع القرار العالمي فإن روسيا التي نعرفها اليوم بهذا القدر وتلك المكانة لم تكن في الأصل سوى مجموعة من القبائل البدائية التي عاشت حياة متخلفة بائسة في شرق أوروبا واحترفت القنص والصيد والإغارة وقطع الطريق. كانت هذه القبائل تحمل اسم "روس" وعرفت في بعض المصادر الأجنبية خارج روسيا باسم "روث" وحمل المنتمي لهذه القبائل اسم "روثيني" أو "روسي".

وإذا كان العالم قد سمع بالروس كقوة مؤثرة في التاريخ منذ القرن السادس عشر أي أن عمر روسيا كلاعب في التاريخ لا يزيد عن خمسة قرون فإنها عاشت حياتها قبل ذلك التاريخ وبصفة خاصة منذ القرن السابع الميلادي في مكانة ثانوية تتأثر بالقوى المحيطة بها وتخضع لها أو تعمل لحسابها.

وحين نقول "تعمل لحسابها" فإننا لا نقع في أي تجاوز بوصفها بالمرتزقة أو الأجيرة، فهذه كانت كلمات المؤلف نفسه حين استخدمها لضرب أمثلة عدة عن الدور الذي لعبته القبائل الروسية للقيام بحملات عسكرية مدفوعة الأجر لصالح القوى المجاورة ومن بينها مملكة الخزر التي توسطت الموقع الجغرافي بين بحر قزوين (بحر الخزر) والبحر الأسود.

كانت هذه القبائل في الأصل جزءا من مجموعة عرقية أكبر تحمل اسم "سلاف Slav" والتي انتشرت في كل المنطقة الفاصلة/الواصلة بين آسيا وأوروبا من بحر البلطيق في الشمال وحتى البحر الأسود في الجنوب.

وقد أشارت عديد من المصادر التاريخية العربية إلى هذه الشعوب السلافية باسم "الصقالبة" وهو مسمى يبدو أنه محرف عن النطق اليوناني "صكيلاب" الذي هو بدوره تنويع على مسمى " سلاف Slav" .

ومن بين كافة العناصر السلافية (الصقلبية) تمكنت قبائل "روس" من الانتشار والتماسك وبناء وحدة سياسية.

الحقيقة أن الروس اعترافا منهم ببدائية حياتهم وضعف قدرهم – وانقساههم على أنفسهم – استعانوا بشعوب أكثر قوة وتنظيما وطلبوا منهم أن "يحكموهم" وهو نمط فريد في القبول الطوعي بتسليم الإدارة والسلطة إلى من هم أكثر قدرة على ذلك من غير أبناء الوطن.

على هذا النحو وصل في عام ٨٦٢ م من شبه جزيرة إسكندناوة القائد روريك ومعه أفواج من القبائل الفارانجية (من الفايكنج) واتخذوا من مدينة "نوفغورود" مركزا ليحكمون منه الإقليم الذي تنتشر فيه القبائل السلافية.

كان الفارانجيون "برابرة" ومحاربين أشداء أجراء أسسوا في "نوفغورود" - وهي مدينة شمالية غير بعيدة عن بحر البلطيق - نظاما للقبائل الروسية ثم سرعان ما نقلوها في مطلع القرن العاشر إلى مدينة أفضل في الطبيعة والمناخ وتوسط الموقع الجغرافي هي "كييف" على نهر الدنيبر.

وسيطلق المؤرخون على تاريخ القبائل السلافية حول كييف مسمى عصر "روس كييف" وستصبح تلك المدينة "أم المدائن" في شرق أوروبا، وفيما بين القرنين العاشر والحادي عشر سيستمر صعود "روس كييف" قويا لقرنين من الزمن قبل أن ينقل الأمراء الروس الموقع إلى موسكو ويعرف تاريخ روسيا مرحلة أو عصر جديد يسمى "روسيا الموسكوفية" بداية من القرن الثالث عشر.

جدير بالذكر أن كييف لم تتأسس من العدم، فالأرجح أنها كانت في الأصل محطة أسسها أمراء دولة الخزر (تلك التي امتدت فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين وبلغت ذروة اتساعها في القرن الثامن الميلادي) واتخذ الخزر من كييف نقطة تجميع الجزية على نهر الدنيبر.

سيظل الروس أسرى لهيمنة الخزر إلى أن يتمكنوا من إنزال هزيمة بهم والتحرر من نفوذهم في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ليصبح الطريق ممهدا أمام القبائل الروسية إلى محور بحر قزوين الذي كانت إمبراطورية الخزر قد أغلقته عبر قرون.

ثانيا: الدولة

شهدت المراحل التي ستمر بها القبائل الروسية منذ القرن العاشر الميلادي لبناء دولة فصولا قاسية كي تجد لنفسها مكانا بين الأمم المجاورة. كان أهم الأمم المجاورة ممثلا في العالم الإسلامي (وعاصمته بغداد) والعالم المسيحي ممثلا في بيزنطة وعاصمتها تسارغراد (مدينة القيصر) المشهورة لاحقا باسم القسطنطينية.

يأخذنا الكتاب في رحلة شائقة لمسيرة قيام الدولة في روسيا. هذه القيامة جاءت وسط تحديات بالغة الصعوبة وتكاد تقترب من المعجزة وسط العمالقة الذين أحاطوا بالقبائل الروسية من كل مكان.

فمن الشمال كانت هناك قوة أكبر ممثلة في السويد وليتوانيا وبولندا، ومن الغرب كان هناك بروسيا ومن الجنوب الإمبراطورية البيزنطية ومن الشرق مملكة الخزر ثم الإمبراطورية المغولية، ومن وراء كل ذلك العالم الإسلامي الذي تمكن من الوصول إلى مشارف الأراضي التي ينتشر فيها الروس في البحر الأسود والقوقاز ووسط آسيا.

ثالثا: التاريخ

صحيح أن هذا الكتاب عن التاريخ، لكنه ليس تاريخ الملوك والأمراء والمعارك فحسب بل هو بالدقة تاريخ "الأعراق" وهو ما يعطي الكتاب مزايا عديدة كما يضعه أيضا في خضم عدة تحديات.

فمن حيث المزايا يتناول الكتاب سلسلة شاملة من أسماء الشعوب والقبائل التي ساهمت في تكوين روسيا كدولة وشعب وحضارة. هذا الحصر الشامل لكل شاردة وواردة في تاريخ روسيا منذ أن كانت قبائل هائمة على وجهها حتى بلوغها مصاف دولة قوية على الساحة الدولية سيرهق من جانب آخر القارئ غير المعني بالتاريخ "الوطني".

التاريخ الوطني هو ذلك التاريخ الذي يضعه مؤلف ويقرأه أبناء وطن واحد ولذلك تكثر في عبارات مؤلف هذا الكتاب صفة الانتساب فنقرأ دوما "وطننا" و"شعبنا" و "أمتنا" و"أرضنا". وهو ما دعاني في بعض الأحيان إلى تغيير طفيف في هذه العبارات لتناسب القارئ العربي لتصبح "الشعب الروسي" و"الوطن الروسي" و"التاريخ الروسي".

هذا النوع من التاريخ "الوطني" مفيد جدا لأبناء روسيا ولكنه قد يبدو ثقيلا على القارئ خارج هذا الوطن الروسي. وستبدو الأسماء ثقيلة وربما مرهقة والتفاصيل كثيرة بالنسبة للقارئ العربي.

لكن هل لدينا خيار؟ هل يمكن التعامل مع روسيا التي تعد قوة دولية ولاعب أساسي في التاريخ المعاصر ومسيرة الإنسانية من خلال عناوين الأخبار فحسب؟ متى نعرف تاريخ وحضارة هذا الشعب؟ هل إذا عرفنا مسيرة تاريخه ومركب أعراقه ساعدنا ذلك في علاقات متبادلة قائمة على النور والوعي والإدراك وليس فقط على معالم القشرة الخارجية.

دعونا نعترف من البداية أن الروس يعرفون عن عالمنا العربي أضعاف ما نعرفه عنه. جاء ذلك بحكم نشاط جمعيات الاستشراق وجهود المستعربين الروس والاهتمام ببلادنا لغة وثقافة واقتصادا. في المقابل فإننا لا تعرف عنهم ولا نترجم لهم بالقدر الكاف.

هذا الكتاب يقدم صفحة بالغة الأهمية للقارئ العربي ولصانع القرار ولكل مهتم بالمراكز الحضارية والسياسية في خريطة العالم المعاصر.

وأنصح القارئ الكريم بأن يضع هذا الكتاب إلى جوار كتاب آخر ترجمناه أيضا للمركز القومي للترجمة بعنوان "جغرافية السياسة في روسيا" ومؤلفه الجغرافي والسياسي ألكسندر دوجين. ومن حسن الحظ أنني شكلت فريقا واحدا للعمل على ترجمة الكتابين وهو ما يفيد القارئ العربي في فهم أوسع لصفحتين من صفحات تاريخ روسيا وحضارتها ودورها السياسي.

وقد وقع الاختيار على الكتابين بالتنسيق مع المركز القومي للترجمة خلال فترة عملي مستشارا ثقافيا لمصر في روسيا ضمن مجموعة من الكتب التي كنا نأمل أن تمد جسورا ثقافية بين الثقافتين.

رابعا: المؤلف وأطروحته

مؤلف هذا الكتاب لم يجمع مادته من المراجع في غرفة مكيفة مغلقة (أو بالأحرى في غرفة مغلقة أمام المدفئة في شتاء روسيا البارد) بل كان صانعا للمعرفة ومنبعا أوليا للمعلومة وراسما لمسار الفكرة والخريطة.

منذ أن كنت طالبا للدكتوراه في كلية الجغرافيا في جامعة سان بطرسبرغ في نهاية تسعينيات القرن العشرين وكان اسم "ليف غوميليوف" يتردد رمزا للجغرافي/المؤرخ الذي اشترك في بعثات للكشف الجغرافي والأثري في جنوب البلاد وبلغت كتبه اثنا عشر كتابا وأكثر من مئتي بحث ودراسة ومقال.

غوميليوف لم يكن عالما قريبا من الدولة أو على الأقل محايدا تجاه سياستها بل كان معارضا في كثير من الأحيان، وهو ما انتهى به إلى السجن عدة مرات في ريعان شبابه (انظر سيرته الذاتية في نهاية الكتاب).

علاوة على المعلومات التي يتحفنا بها والخرائط التي يزودنا بها يصيغ لنا المؤلف أطروحته التي اشتهر بها في علم الجغرافيا التاريخية والتي يمكن أن نسميها أطروحة "الشغف الخلَّاق في الفضاء الأوراسي". تقوم هذه الأطروحة على عمودين:

- الباسيونارنست وهي كلمة روسية تقابل كلمة "باشِن Passion " في اللغات اللاتينية وتعني "الشغف". هذا الشغف يتجاوز مستوى الفرد إلى الشعب والمجموع السكاني ويؤدي تراكمه إلى "دفعة" أو "دفقة" أو "اندفاعة" من الحركة تخلق واقعا جديدا على الأرض. أي أننا أمام "شغف خلَّاق" ينقل شعوبا لم يكن لها وجود من قبل إلى ساحة الضوء والمكانة البارزة في مسيرة التاريخ.
- الفضاء الأوراسي. ويقصد به تلك المنطقة الانتقالية بين قارتي أوربا وآسيا والتي تمثلها حاليا دول أوكرانيا وبيلاروسيا ودول بحر البلطيق فضلا عن عدد من دول حوض البحر الأسود. كلمة أوراسيا مؤلفة من مقطعين "أوربا" و "آسيا" وهذا لا يعني أن الفضاء الجغرافي هو مجموع القارتين بل المنطقة المتداخلة بين القارتين والجمع بينهما هو جمع ين بيئات متنوعة من الغابات والسهوب والجبال والجليد والمستنقعات والأنهار والبحار والبحيرات. هذا التنوع البيئي استلزم تنوعا في نشاط القبائل والشعوب ومحاور تركزها وتحركها وانعكس بالتالي على نشاطها الاقتصادي.

على هذا النحو فإن غوميليوف كان يتناول في كتابه تاريخ روسيا من حيث أنه في الحقيقة تاريخا للشغف الخلاق للشعوب الأورآسيوية.

لا يوقف المؤلف قصة الشغف الخلَّاق على أسلاف الروس من القبائل السلافية التي سيطرت على شرق أوروبا بل يعود إلى ما قبل هذا التاريخ بأكثر من ألف عام متتبعا

الفصول المتلاحقة من دفقات ودفعات الشغف الخلَّاق التي انتشرت في آسيا وأوروبا أو في "أوراسيا" بمعنى أشمل وأكثر اندماجا.

يأخذنا المؤلف مع رحلة شعوب "الخون" وأحفادهم من "الهون" الذين انتشروا من أقصى الشرق الآسيوي ووصلوا إلى القارة الأوروبية رابطين وموحدين ومهيمنين على الفضاء الأوراسي. وفعل المؤلف الشيء نفسه متتبعا مسيرة القوط، والبچناك والبولغار والقبائل التي انضوت تحت حكم اليهود الخزر وموجات الزحف المغولي.

هذا الكتاب أيضا من الكتب النادرة التي تؤصل لجذور علاقة اليهود والروس منذ القرن العاشر الميلادي وتدخلهم في شؤون روسيا خارجيا وداخليا.

رابعا: المغول في روسيا.. ثنائية النعمة والنقمة

كان سقوط كييف في عام ١٢٤٠ في يد المغول مرحلة جديدة لما ستعرفه روسيا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. لكن على خلاف ما تبناه بعض المؤرخين في روسيا من أن غزو المغول كان نقمة وإذلالا للقبائل الروسية وأخذها إلى مصاف التخلف ينتمي مؤلف كتابنا الحالي ليف غوميليوف إلى الرواد الذين قبلوا تعبير "لولا المغول لما قامت روسيا" والذي صكه المفكر الروسي سافيتسكي (في عام ١٩٢٢) معتبرا أنه بفضل "القبيلة الذهبية" التترية اكتسبت روسيا استقلالها الجيوسياسي وحافظت على استقلالها الروحي من عدوانية العالم الروماني الجرماني الغربي المسيحي المتغطرس.

ينتمي غوميليوف إلى تأثير سافيتسكي وغيره من العلماء ممن يردون الاعتبار للتأثير الآسيوي المغولي والتتري والتوركي باعتباره مفهوما حضاريا وجيوسياسيا مميزا عن التأثير الأوربي في الغرب. في هذا السياق استفاد الروس من النظام الإداري الذي جلبه المغول من حضارات الشرق خاصة الحضارتين الصينية والإسلامية (سيما الحضارة الفارسية).

وخلاصة أطروحة العامل المغولي المؤثر في تاريخ روسيا تقوم على معاكسة المقولات السابقة عن الإذلال المغولي لتطرح محله فرضية سافيتسكي وغيره من أن روسيا هي وريثة الخانات المغولية العظمى، ومكملة إنجازات جنكيز خان وتيمورلانك، وهي بهذه الشكل موحدة الفضاء الأوراسي معا.

تبنى غوميليوف في هذا الكتاب وفي غيره من أعماله السابقة رد الاعتبار للمكون الآسيوي وإسهامه في تكوين الدولة الروسية من خلال التعاطف تجاه الثقافات البدوية في أوراسيا، وفي مؤلفاته السابقة على هذا الكتاب تبني غومليوف مصطلح عصر "الفتوحات المغولية"، رافضا وصفها بـ "النير المغولي"، معتبرا أنه بفضل "القبيلة الذهبية" والمبادئ الاجتماعية لقانون "ياسا" الذي وضعه جنكيز خان تشرب الروس العظماء تقاليد البناء الإمبراطوري وحافظوا على الهوية الأرثوذكسية، ما مكنهم بعد ذلك من بناء إمبراطورية عالمية.

خامسا: الدين ..روحانيته واستغلاله البراغماتي

الدين لوحة مهمة من لوحات تاريخ روسيا منذ أن كانت قبائل تعبد الأوثان. أزمة هذه القبائل أنها كانت تعبد أوثانا تتطلب تضحيات وقرابين بشرية دموية مما جعل الكثيرين يخشون هذه الآلهة ولا يحبونها. وحينما حاولت القبائل أن توحد نفسها في القرنين الثامن والتاسع وجدت أزمة تبعثر الانتماء على أوثان وآلهة متنوعة. من هنا كان لابد من البحث عن دين يوحد هذه القبائل المبعثرة في كيان واحد. يأخذنا المؤلف إلى حيرة الأمراء الروس في البداية تجاه الديانات التوحيدية الثلاث (اليهودية – المسيحية – الإسلام)

لأسباب مختلفة سنعرفها من الكتاب وصفحاته الجادة اختار الزعماء الروس منذ مطلع القرن الحادي عشر المسيحية دينا للقبائل الروسية الوثنية وفرضوه عليهم ووقعت حالات صدام عنيفة بين أتباع الأوثان وأتباع الديانة الجديدة حتى انتصرت الدولة في فرض دينها الجديد وتغيرت مسيرة الدولة ومحاور تحالفاتها ولم تحقق فقط أهدافا روحية لشعبوها بل أهدافا سياسية وإدارية في المقام الأول.

سادسا: ثنائية الشرق والغرب

التعبير الأوراسي الذي ينضوي على بعض غموض لمن لا يعرفون تفاصيل خريطة أوراسيا يمكن التعبير عنه بشكل مبسط بأن روسيا تقدم نفسها على المسرح الدولي

باعتبارها حضارة "شرقية/غربية" أي تجمع بين خصال الشرق الآسيوي وسمات الغرب الأوروبي.

هذا الجمع يقدم أزمة وفرصة في الوقت نفسه. فهو أزمة حين تحاول روسيا ضم هذا التنوع الكبير المتشابك والمعقد في تفاصيل حضاراته الفرعية وتنوعات لغته وثقافته داخل حدود بيت واحد كبير اسمه البيت الروسي (وفي تسمية البيت بالـ"روسي" إغفال لهوية أسماء عشرات الأعراق الأخرى المضطرة لأن تنسب نفسها إلى الهوية الروسية).

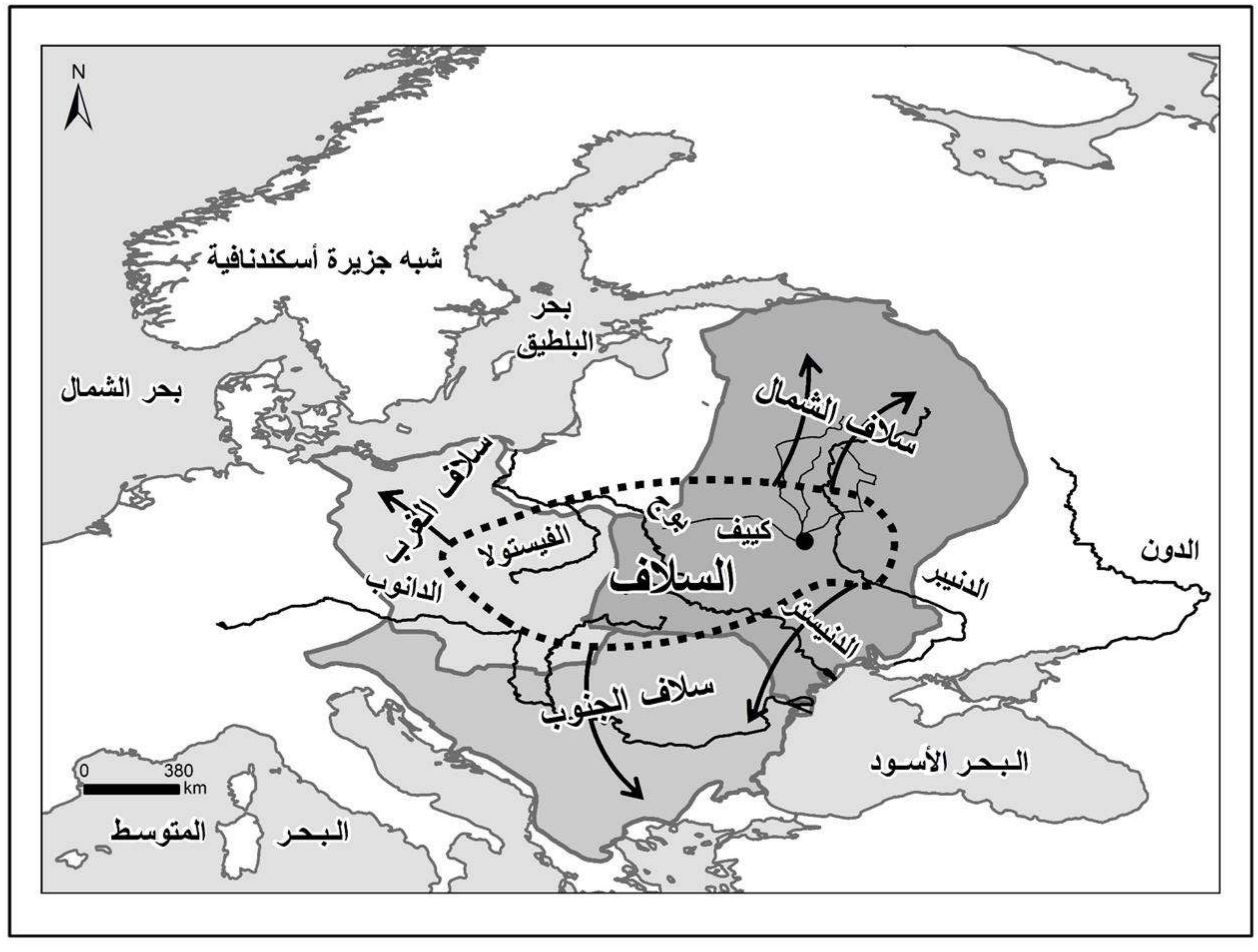
أما الفرصة فكامنة في هذا الثراء الطبيعي للأرض التي ضمتها روسيا بالتوسع والحرب على حساب هذه الأعراق وما تحويه هذه الأرض من معادن وخيرات فضلا عما يعيش عليها من شعوب وحضارات متنوعة تثري الحضارة الروسية وتدعمهما وترفدها بروافد إبداعية لا نهاية لها وتجعل منها ما يسميه مؤلف هذا الكتاب "شعبا فائقا" أو ما يقوله حرفيا في مسمى "السوبر إثنوس" أي "العرق السوبر".

الكتاب الذي بين أيدينا هو مرجع أساس تعرفه الأوساط الثقافية والعلمية والأكاديمية في روسيا باعتباره من أشهر كتب التاريخ والحضارة. وإضافته للمكتبة العربية أمر مهم ومفيد، مع التسليم طبعا بأننا نتوقع من القارئ العربي صبرا على أسماء الأماكن الكثيرة وأسماء الأمراء والملوك والشخصيات التي يحفل بها الكتاب والتي تشبه بعضها بعضا وتختلط أحيانا على العين غير المدربة.

وأود هنا أن أوضح أنني أعددت مجموعة مؤلفة من ٢٥ خريطة كان لابد منها لمساعدة القارئ العربي على تتبع رحلة الكتاب. وقد وضعت هذه الخرائط في ملحق خاص في نهاية الترجمة كي يعود إليه القارئ بيسر كلما احتاج أن يتأكد من موقع مكان أو معركة أو حركة شعوب.

وإضافة إلى الجهد الذي بذله فريق الترجمة في هذا العمل، فإنني أود أن أشكر اثنين من الباحثين الشباب ساعداني في إتمام عملية تجهيز الكتاب في نسخته العربية ورسم ملحق الخرائط وهما الشابين الواعدين "محمود ربيع" و "محمد وحيد" من خريجي قسم الجغرافيا جامعة القاهرة عام ٢٠١٩.

ملحق الخرائط

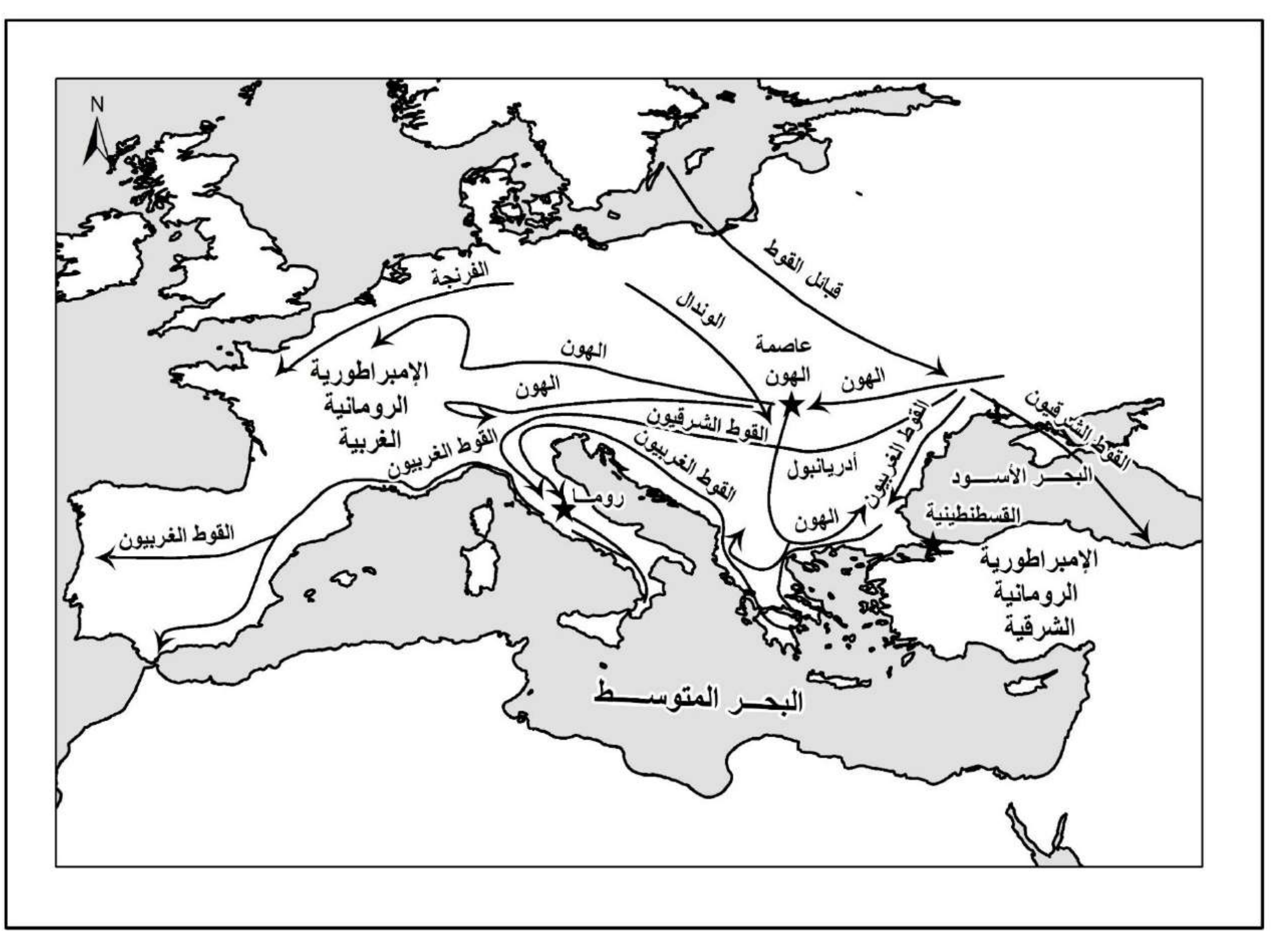


شكل (١) موطن السلاف

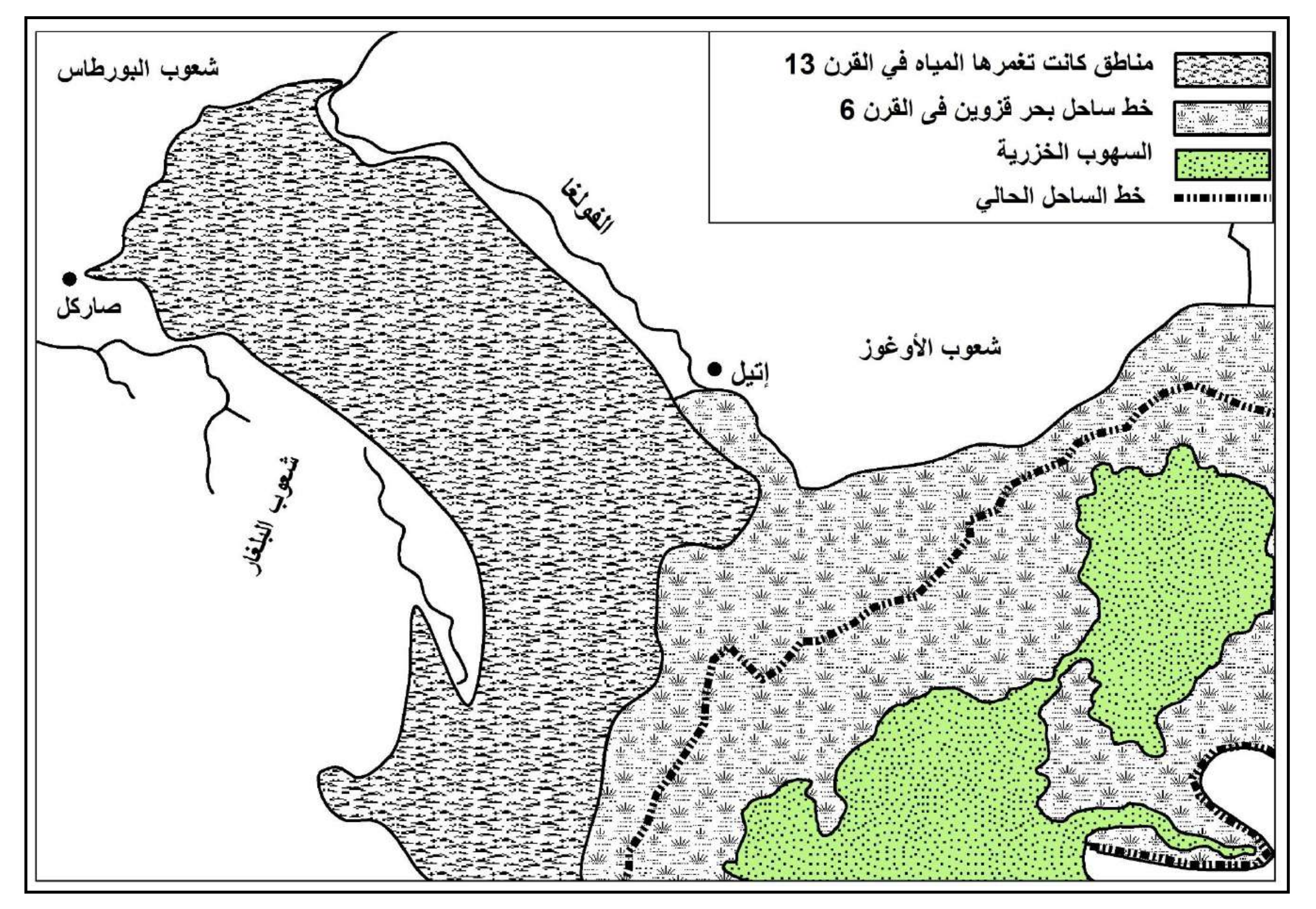
أوراسيا

الخون

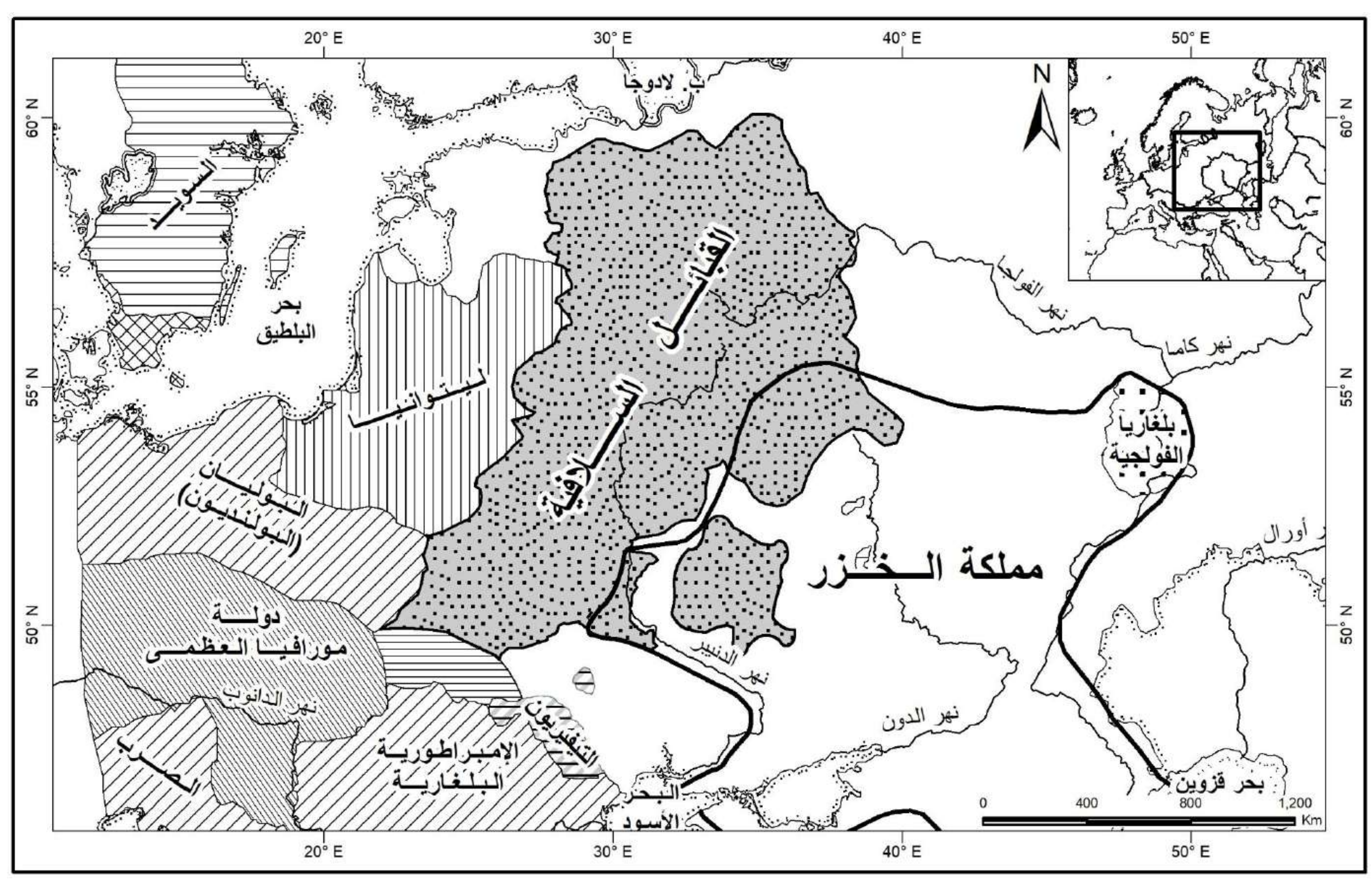
شكل (٢) موطن الخون (أسلاف الهون)



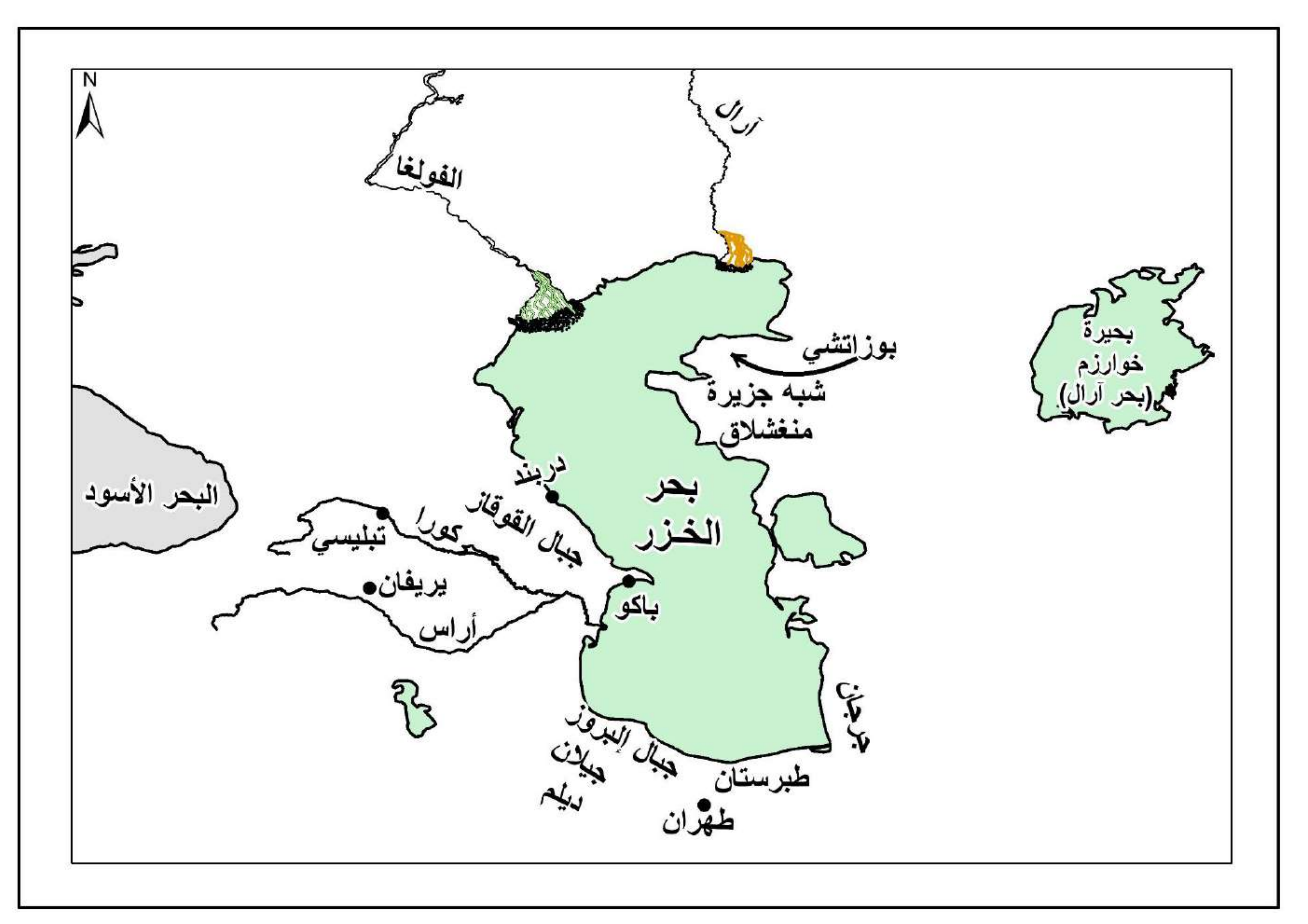
شكل (٣) حملات الهون والقوط في أوروبا



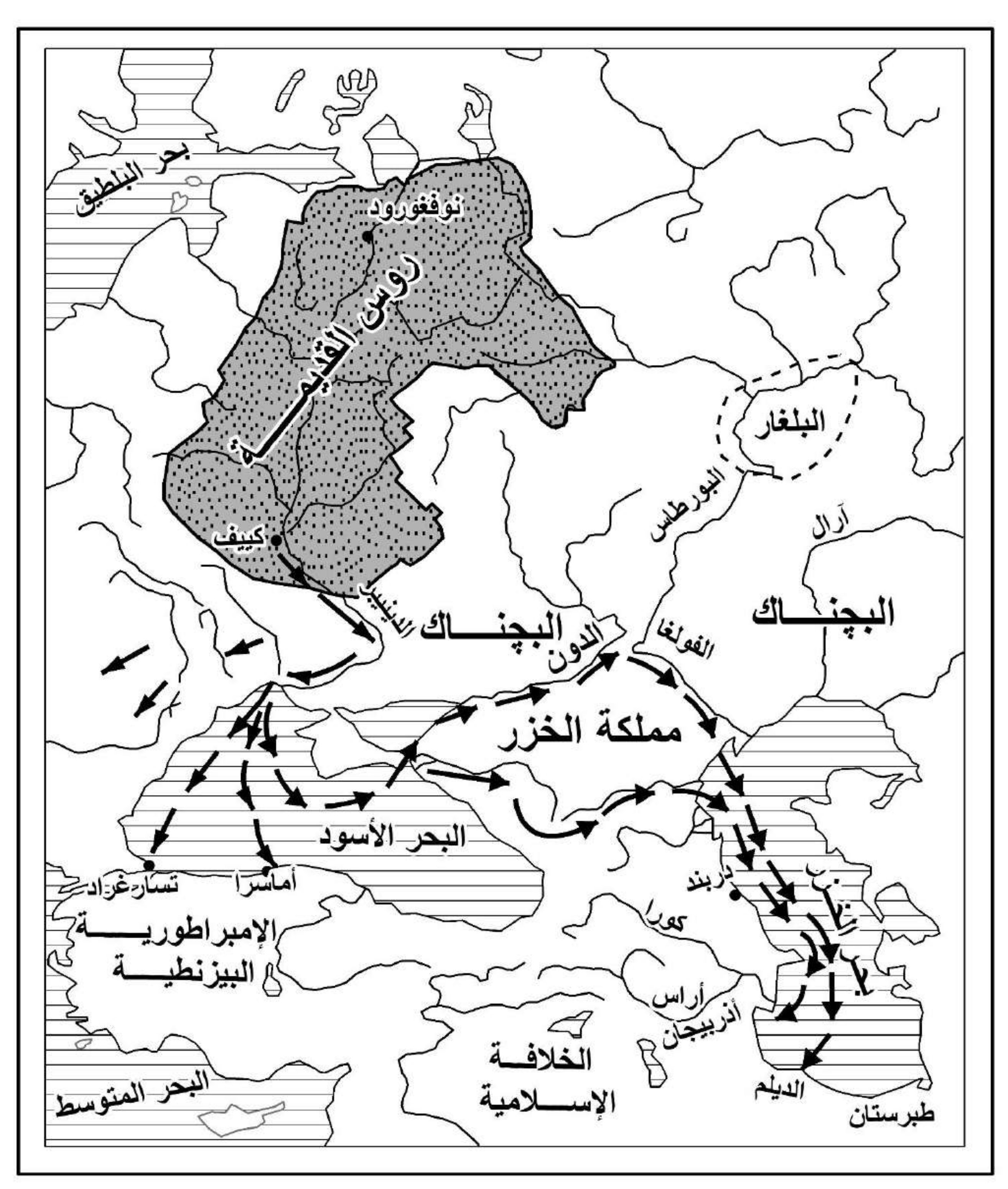
شكل (٤) بحر الخزر (قزوين)



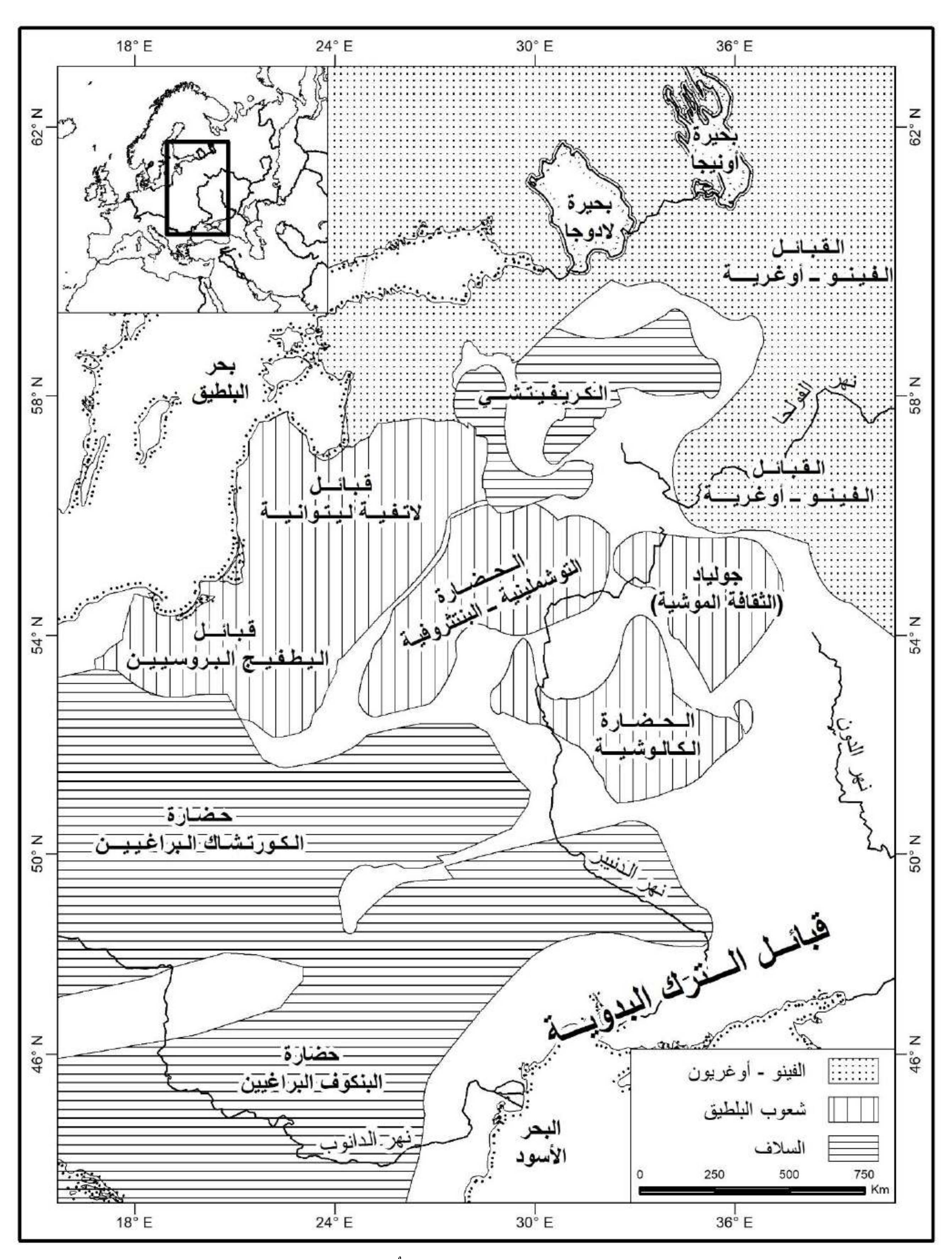
شكل (٥) القبائل السلافية في بداية القرن التاسع وموقع مملكة



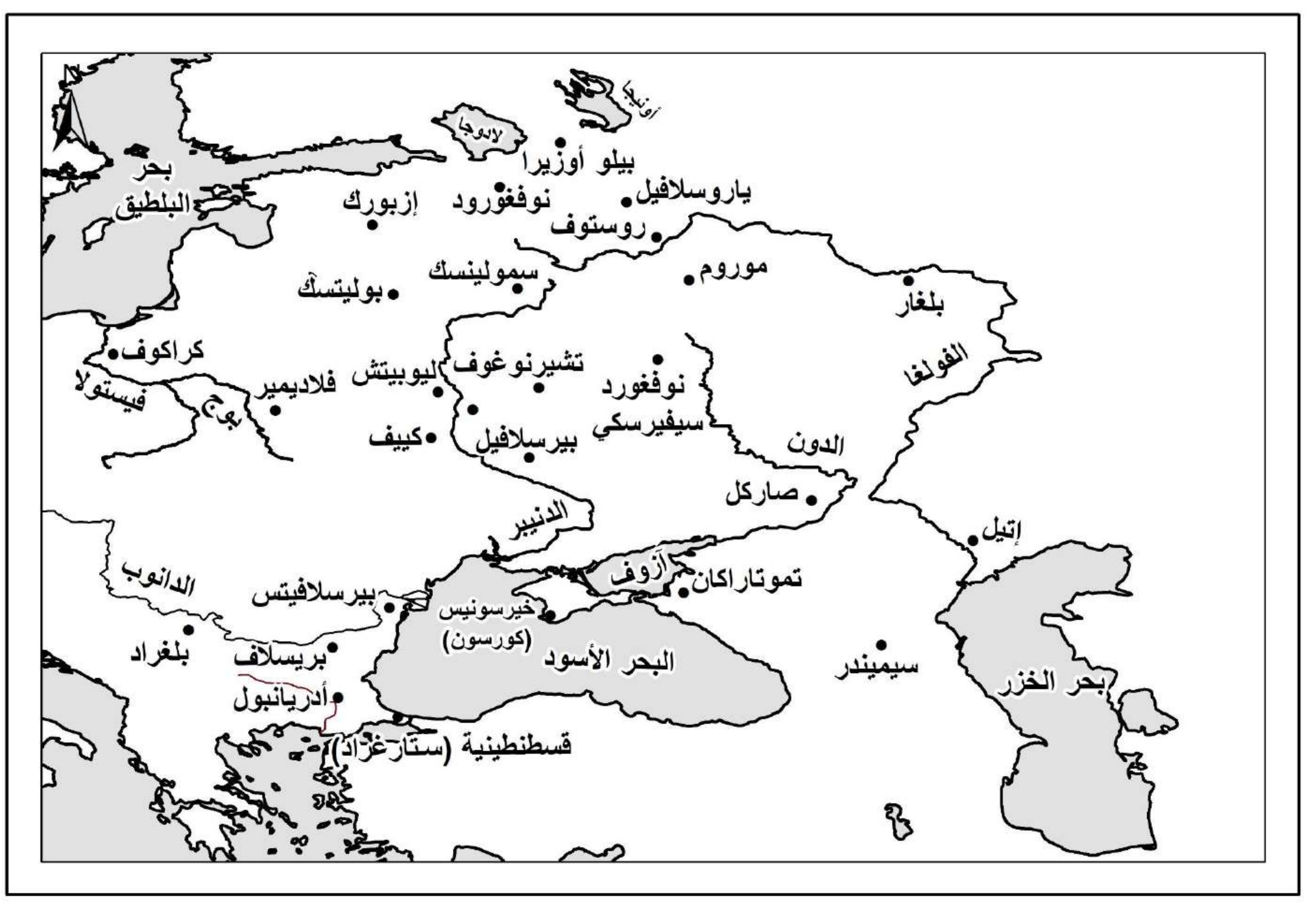
شكل (٦) بحر الخزر (قزوين)



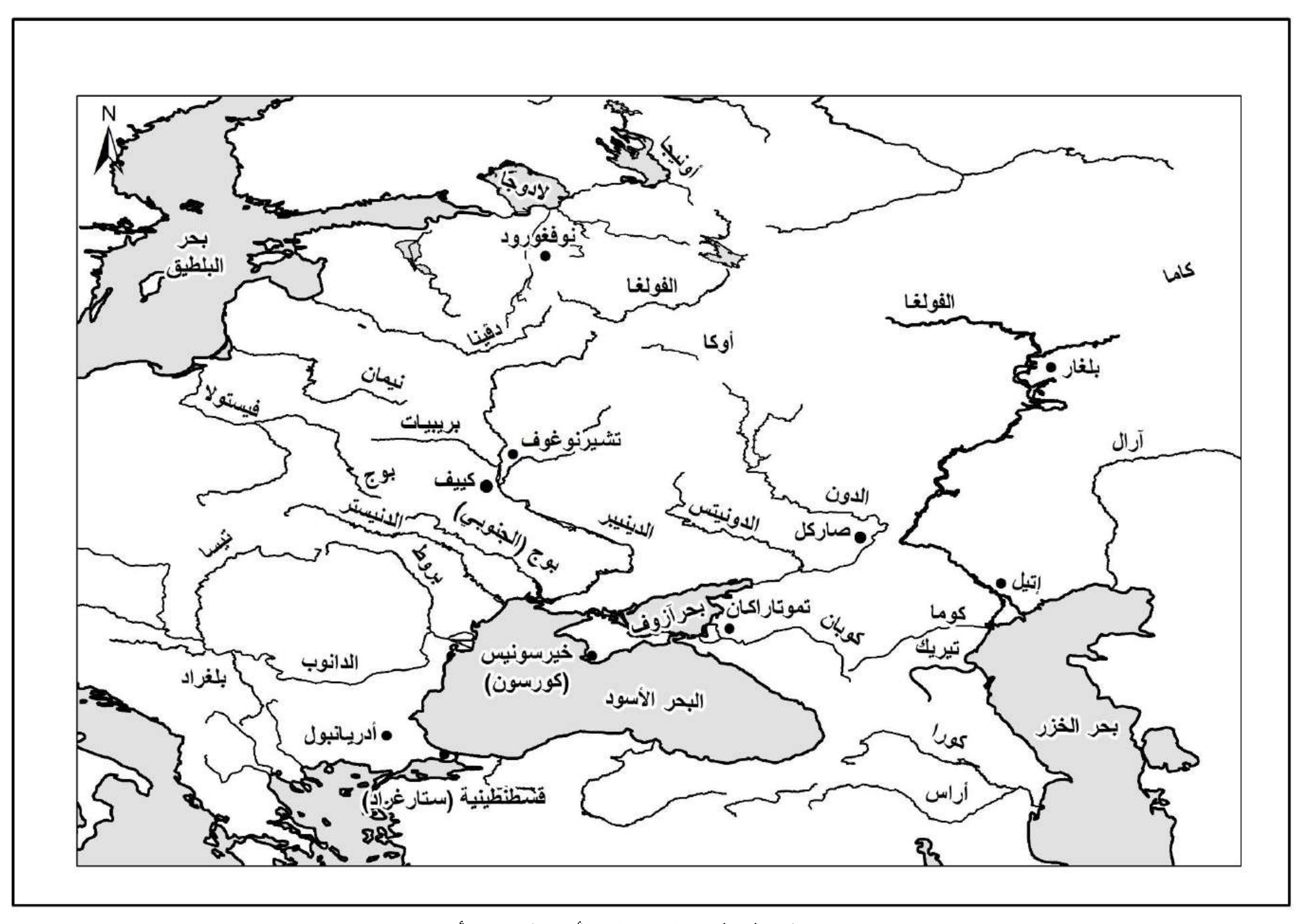
شكل (٧) حملات روسيا لحساب مملكة الخزر



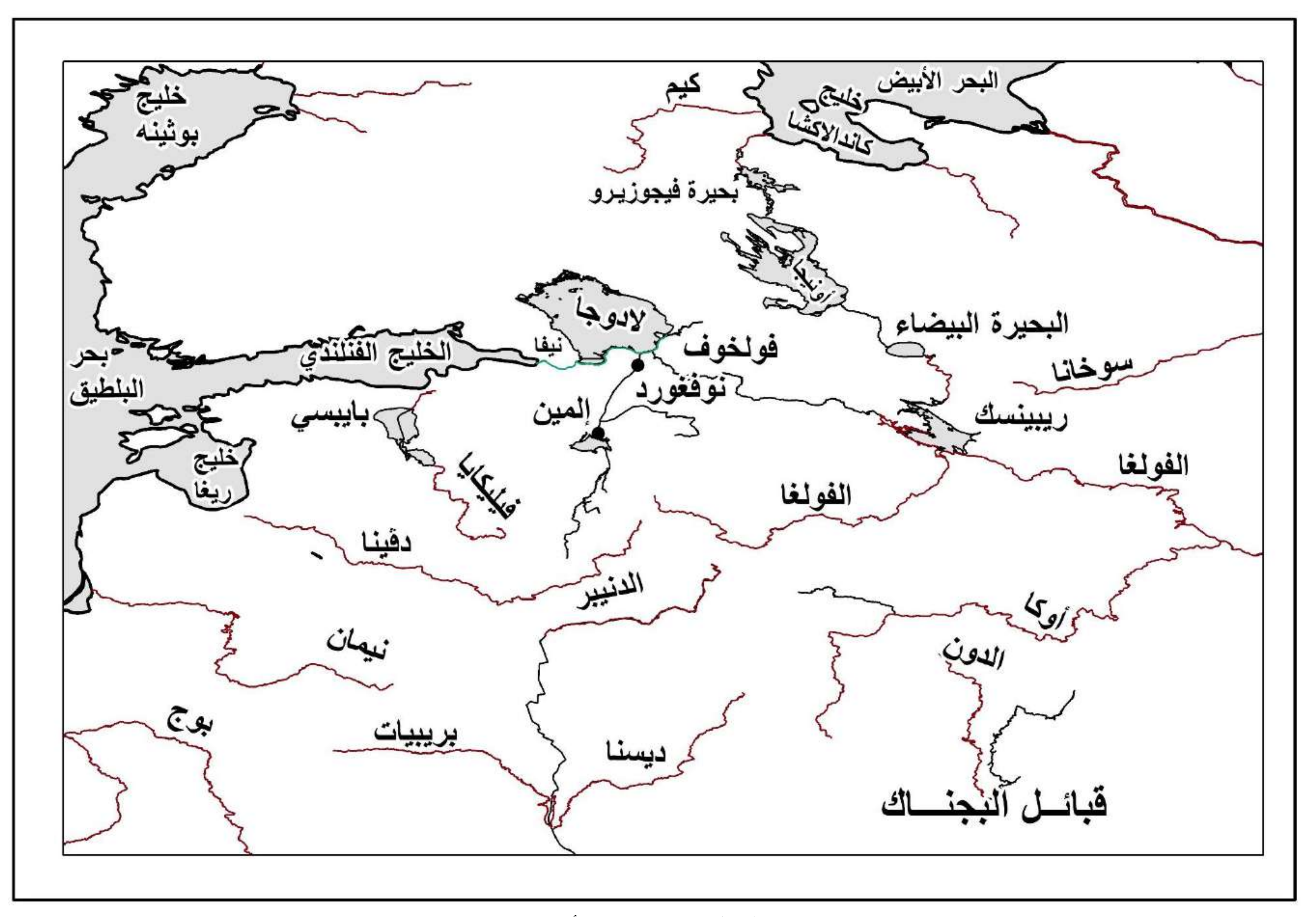
شكل (٨) السلاف وقبائل التُرك البدوية



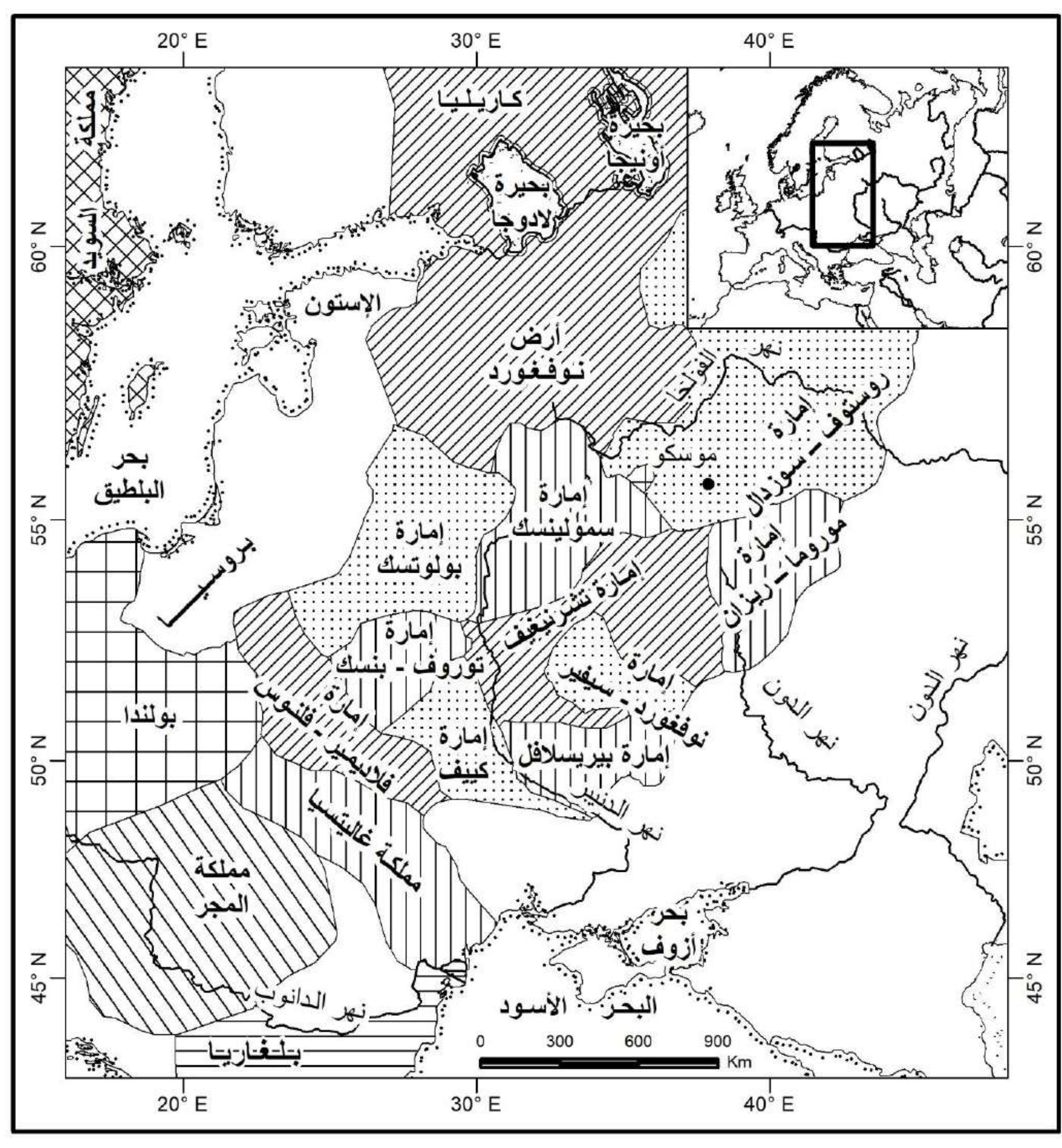
شكل (٩) المراكز الحضرية والسياسية في شرق أوروبا (القرن العاشر)



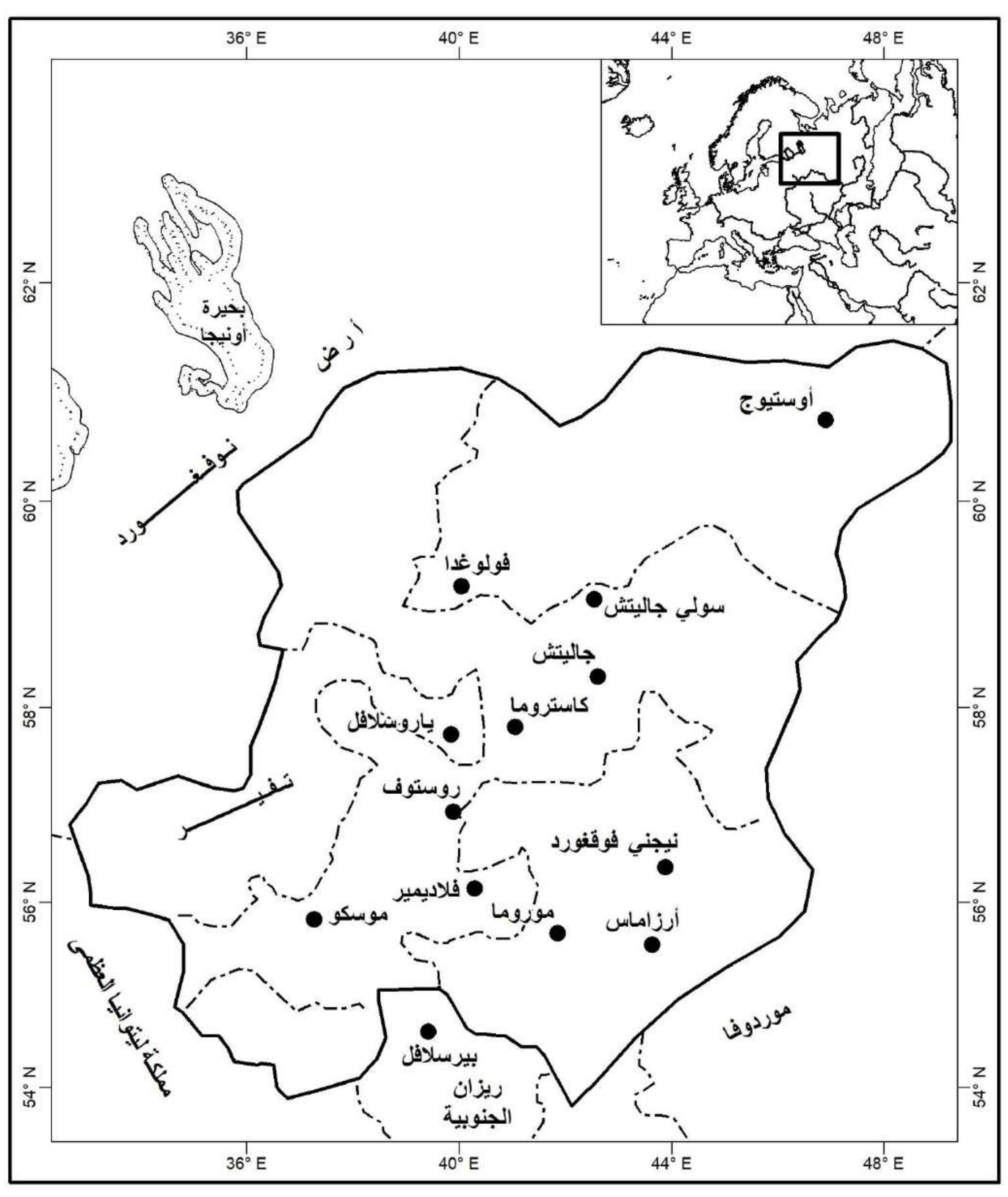
شكل (١٠) معالم سطح الأرض في شرق أوروبا



شكل (١١) معالم سطح الأرض في شمال روسيا

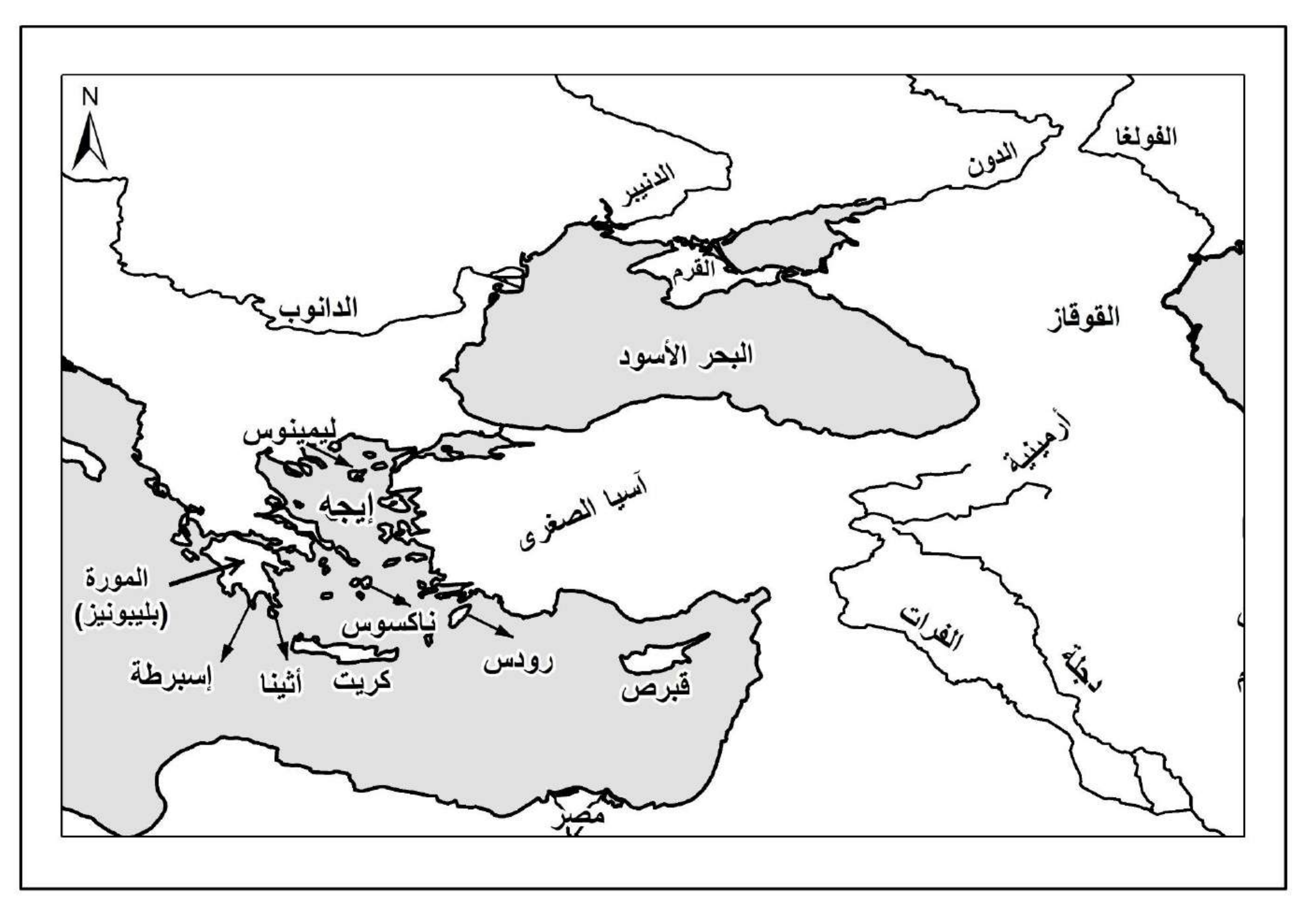


شكل (١٢) الإمارات الروسية في القرن الثاني عشر

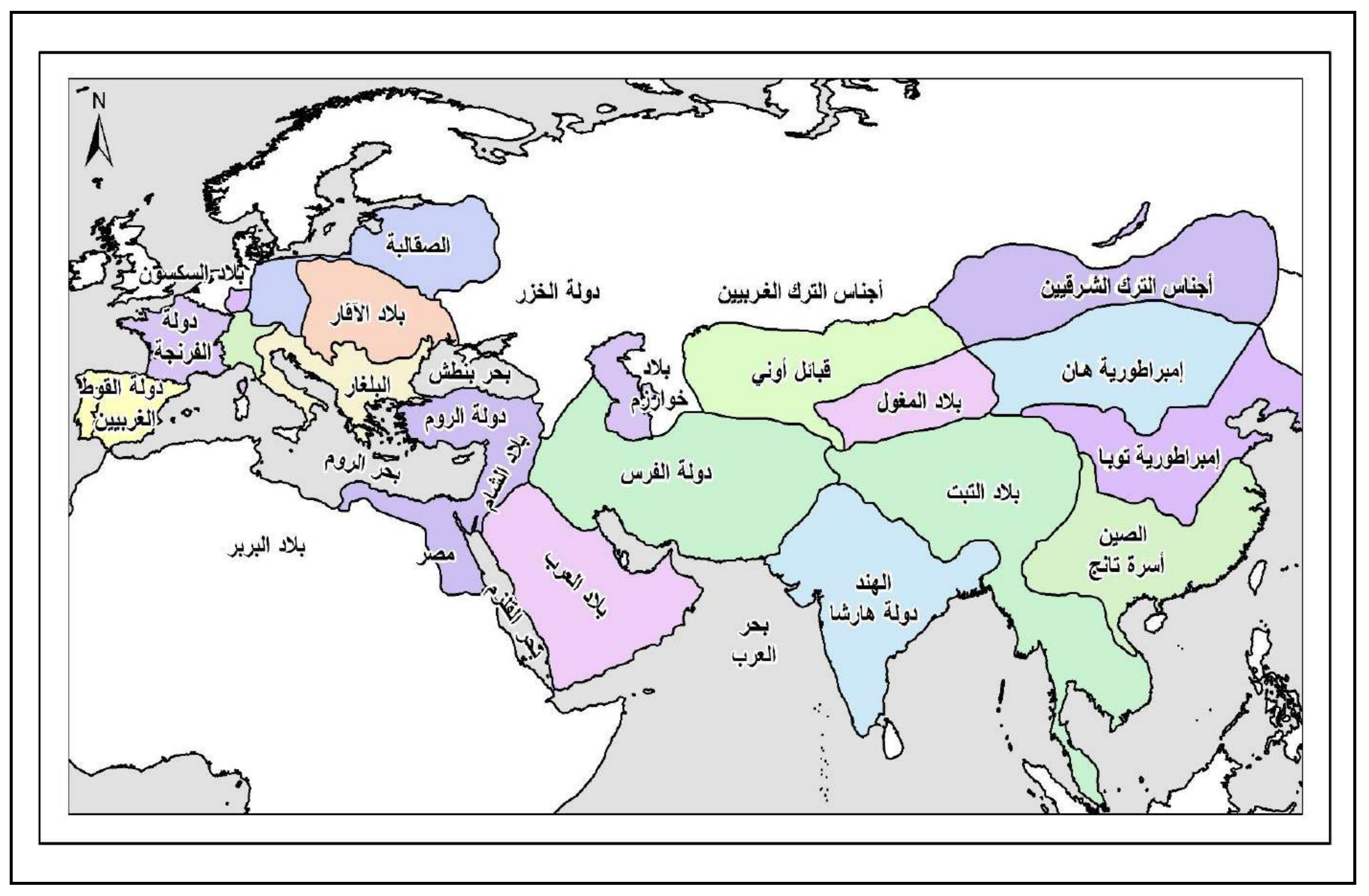


شكل (١٣) إمارة موسكو في القرنين الرابع عشر والخامس

شكل (١٤) فارس وغرب آسيا

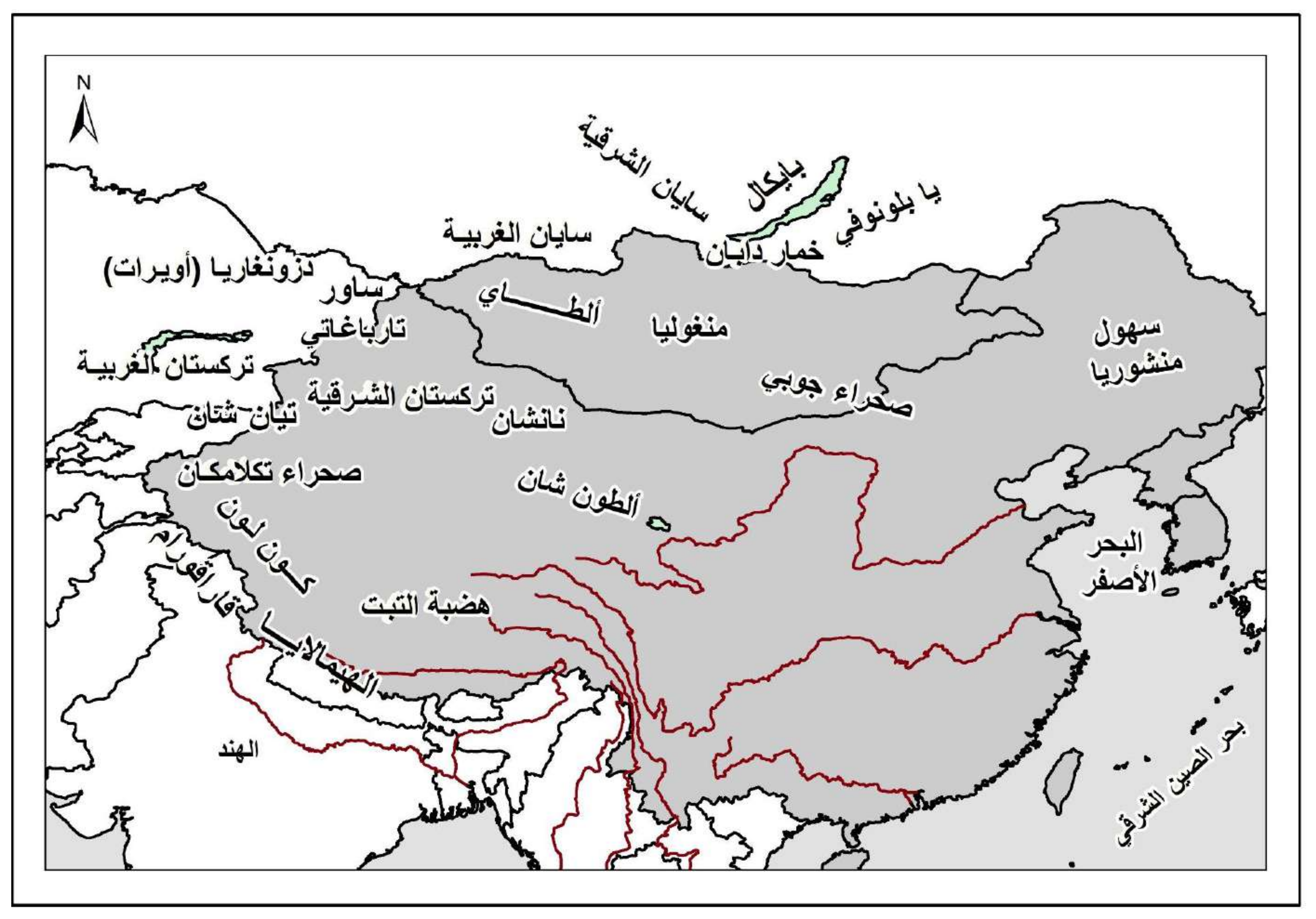


شكل (١٥) جزر شرق البحر المتوسط



شكل (١٦) أوراسيا في القرن السابع الميلادي

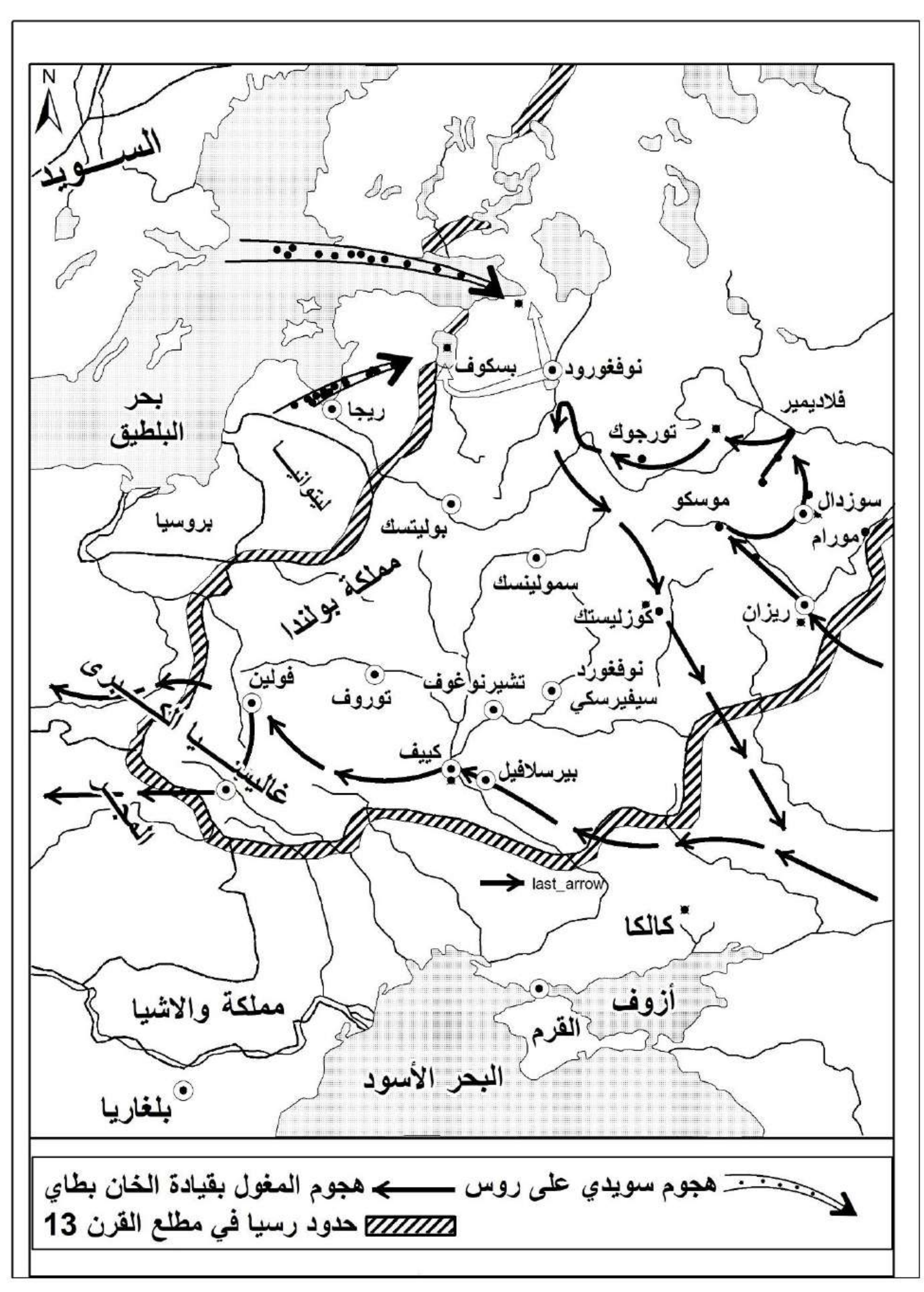
شكل (١٧) المغول في آسيا



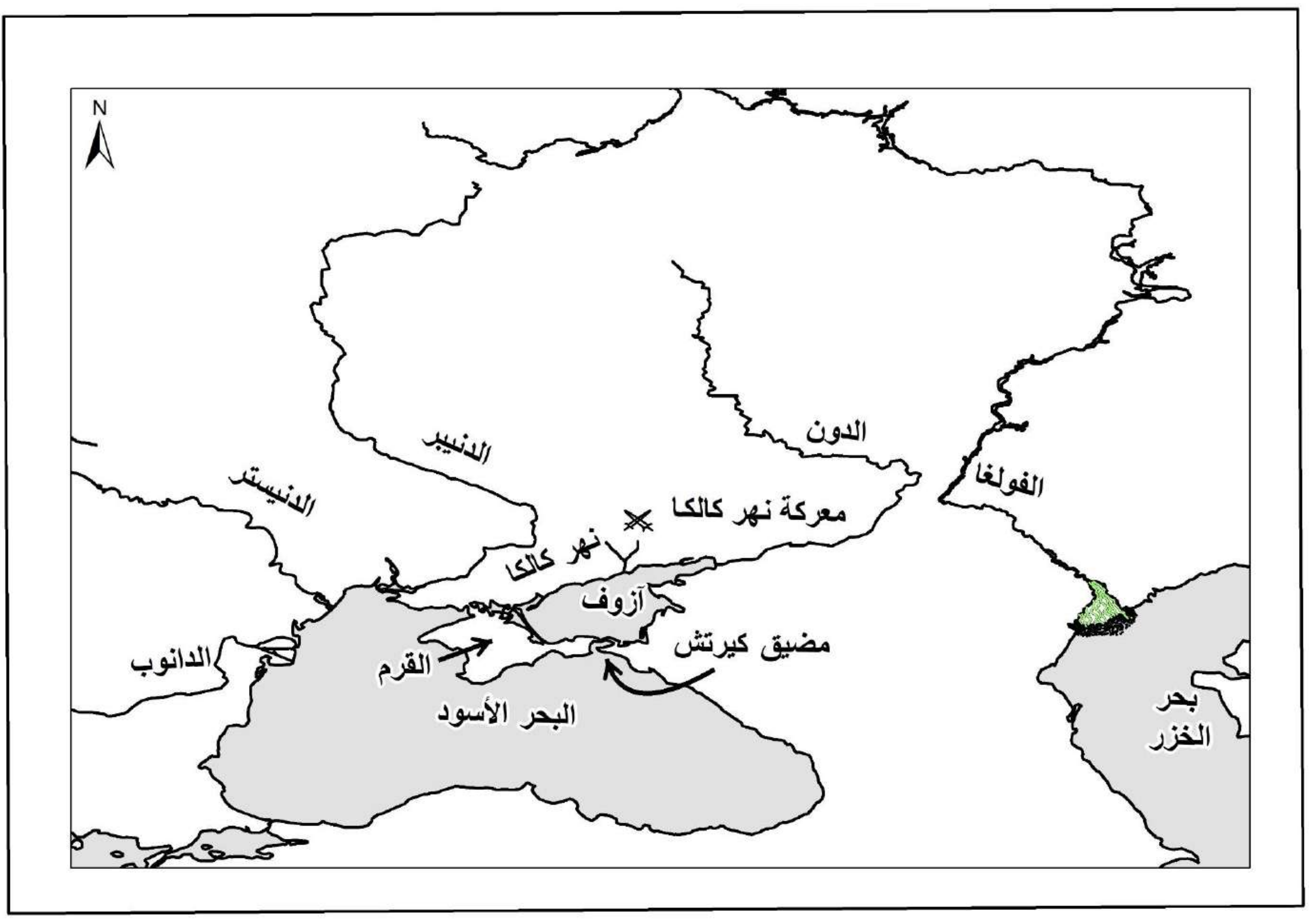
شكل (١٨) معالم سطح الأرض في شرق آسيا

شكل (١٩) الحملات المغولية في أوراسيا

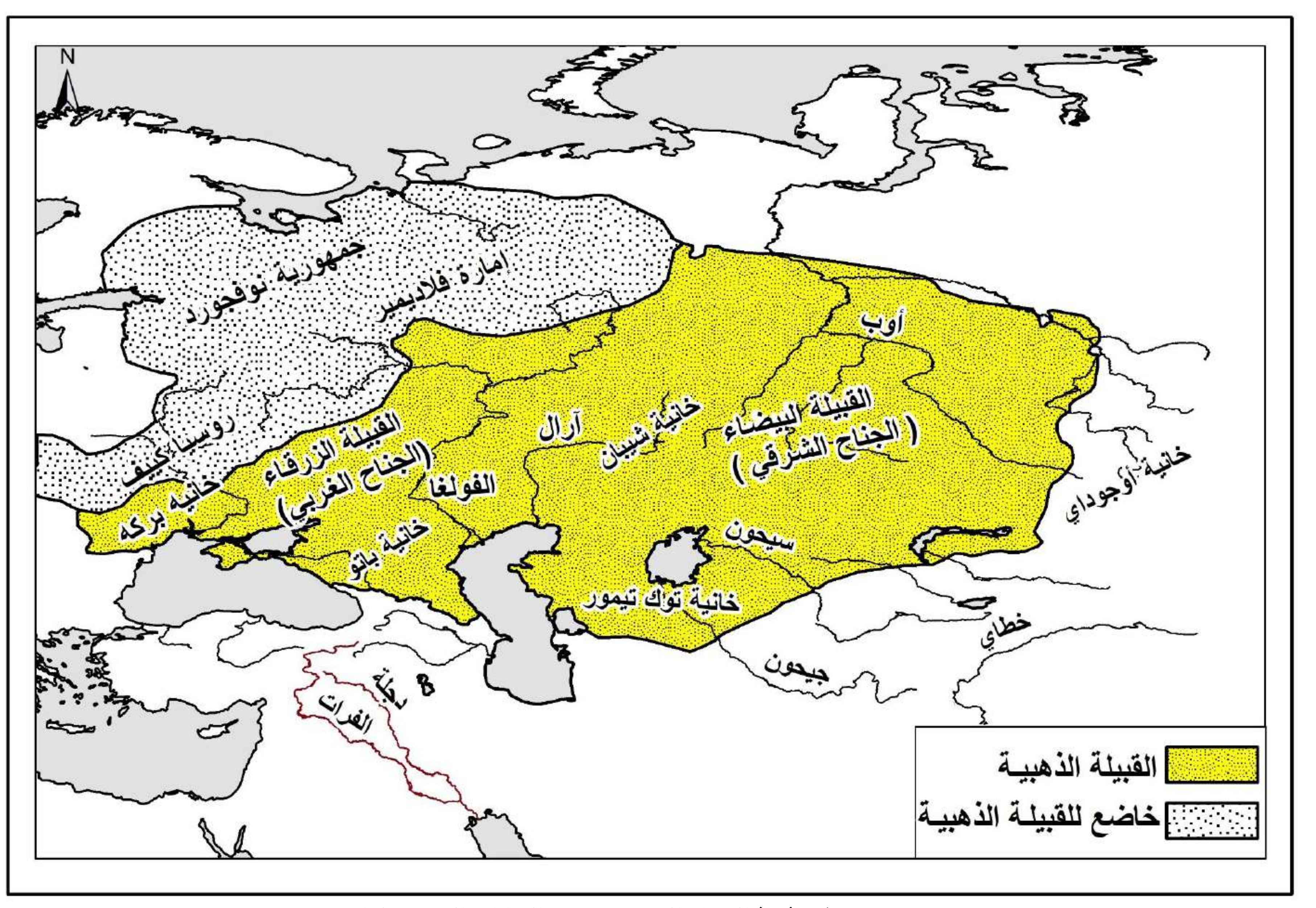
شكل (٢٠) بلاد ما وراء النهر



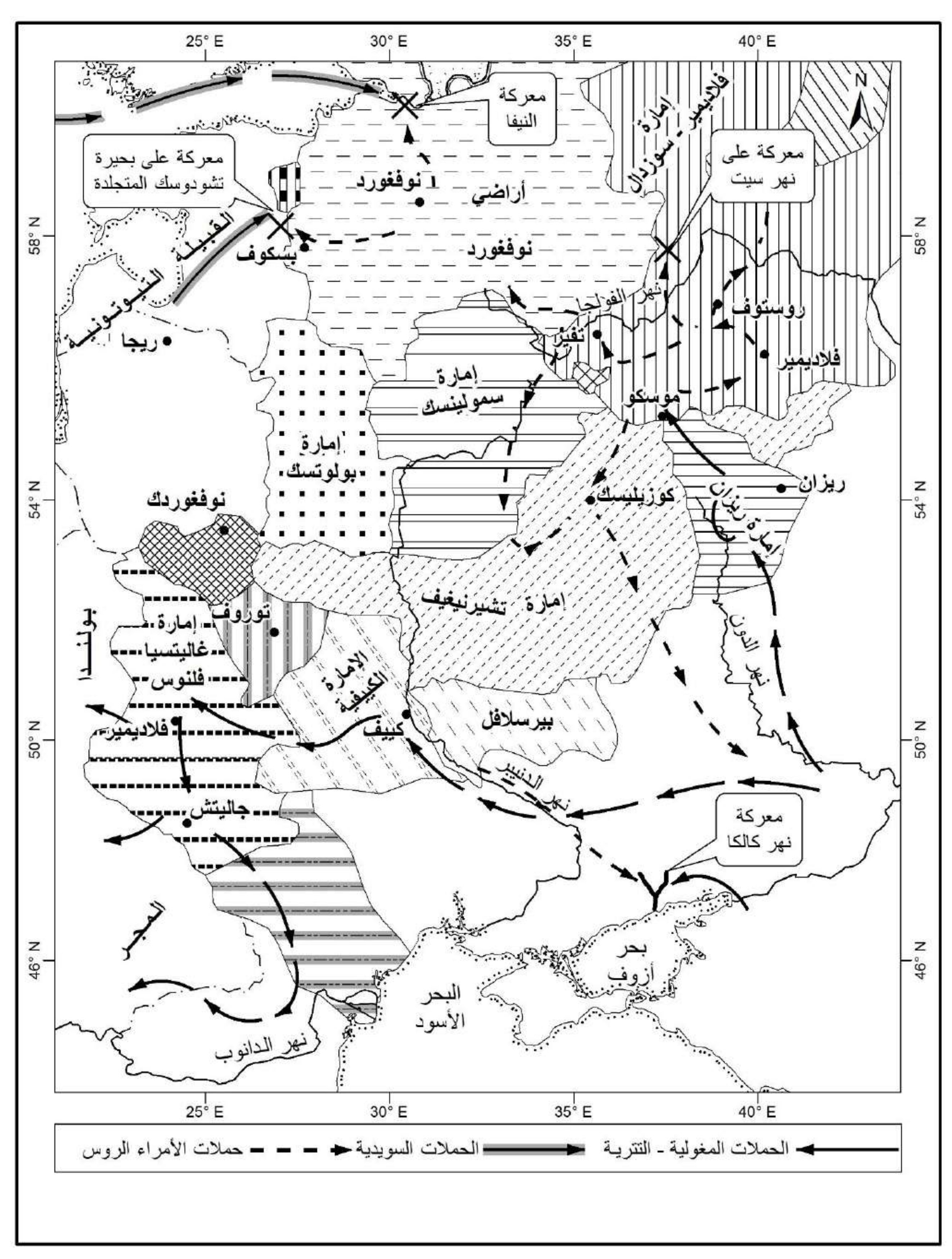
شكل (٢١) الهجوم المغولي والسويدي على روسيا



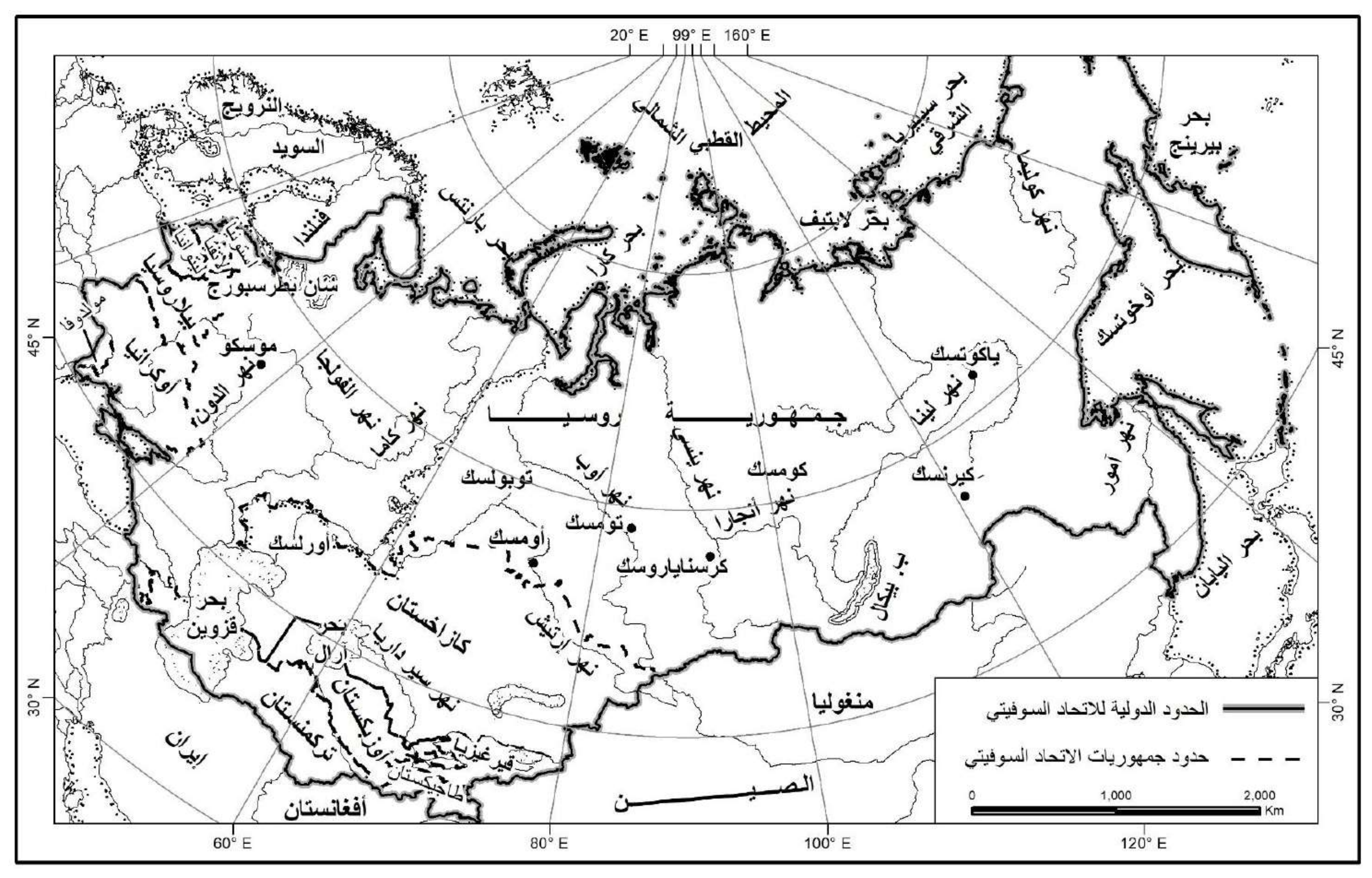
شكل (٢٢) موقع معركة نهر كالكا



شكل (٢٣) القبيلة الذهبية وتبعية الإمارات الروسية لها



شكل (٢٤) الحملات المغولية والسويدية



شكل (٢٥) الاتحاد السوفيتي في منتصف القرن العشرين